من أخبار المسافرين (٣٠) مسافرة تُخْتَطف من زوجها

هذه إحدى المسافرات المؤمنات، والمهاجرات الصالحات، خرجت مع زوجها فراراً بدينها، وهجرةً إلى ربها، وقد منَّ الله عليها بعد ذلك فأصبحت أمّاً للمؤمنين، وزوجة لقائد الغر المحجلين ﷺ، وهي أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها وأرضاها، لنستمع إليها وهي تروي لنا قصتها المؤثرة، قالت:

لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيرَه ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيره، فلما رأته رجالُ بني المُغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد، رهْط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنوالمُغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبوسلمة إلى المدينة. قالت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنةً أو قريباً منها حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبدالأسد، إلي عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خَلْق الله. فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أقْدم على زوجي؛ حتى إذا كنت بالتَّنْعيم لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلاَّ الله وبُنَيّ هذا. قال: والله ما لكِ من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة ثم تنحَّى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح قام إلى بعيري فقدَّمه فرَحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذاركبت واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبوسلمة بها نازلاً ـ فادخُليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة.

ولما تُوفي أبوسلمة حزنت أم سلمة عليه حزناً شديداً فسمعت النبي ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلاَّ أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها**» فقالتها وهي تقول: ومن خير من أبي سلمة؟! فأخلفها الله خيراً منه رسول الله ﷺ، فأصبحت من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

دعوة للسياحة في الأرض

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام في رحلته لطلب العلم: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

فالسفر قطعة من العذاب لكنه عذبٌ عند الأحباب، ومتعة للأصحاب. تسافر فيه الهموم عن مواطن القلوب، وتغرب فيه شمس الحزن عن أفق النفس. السفر بالرغم مما يحدث فيه أحياناً من العنت والمشقة إلاَّ أن فوائده عظيمة، وآثاره جليلة، ولقد قدم القرآن الكريم بطاقات دعوة للسفر والسياحة لأغراض سامية، ونتائج مثمرة أهمها:

أ ـ أخذ العبرة من الأمم الغابرة والقرون السالفة. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

ويقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ب ـ رؤية مصارع الظالمين والجبابرة على مرّ العصور. يقول تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]

جـ ـ التفكر في مخلوقات الله والتأمل في ملكوته وآثار عظمته وقدرته وملكه.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

د ـ البحث عن أسباب الرزق وتأمين سبل العيش. يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [تبارك: ١٥]. وتأمَّل جمال اختتام الآية بقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ فكم يثير في النفس من أشياء. وما هي الموعظة والذكرى التي يقدمها.

يقول تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

[المزمل: ٢٠]

هـ ـ السفر لطلب العلم والتفقه في الدين. يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي قصة موسى التي ذكرها الله تعالى أكبر دليل على الترغيب في السفر لطلب العلم والتزود من المعرفة.